

إميل بدارين* | Emile Badarin

عرض كتاب:

مناهج تحليل المستقبل والسيناريوهات

Book Review:
Methods of Future and Scenario Analysis

المؤلف: حنا كوسوف وروبيرت غاسنر Hannah Kosow & Robert Gassner

الكتاب: مناهج تحليل المستقبل والسيناريوهات

العنوان الأصلي (بالإنكليزية): Methods of Future and Scenario Analysis

الناشر: المعهد الألماني للتنمية - بون

سنة النشر: 2008

عدد الصفحات: 124 صفحة

يعكف المؤلفان حنًا كوسو وروبرت كزرنر في هذه الدراسة على تحليل مجموعة من المناهج العلمية لبناء السيناريوهات ودراسة المستقبل، وذلك بهدف خدمة سياسة التنمية بالتحديد. وتكمن قيمة الدراسة في تقديم تحليل مقارن ومدمج لمنهجيات متعدّدة لبناء سيناريوهات لتطوّر قضية أو وضع مستقبلي ما. ولهذا يُمكن قراءة الدراسة بصفتها مقدمة مكثفة ومراجعة لنظريات إعداد السيناريوهات وأدواته. فالتعريفات المطروحة لمفهوم السيناريو، في أدب دراسات المستقبل، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمناهج المتنوعة التي تُعدّ على أساسها السيناريوهات، بيد أنّ المؤلفين يميلان إلى تعريف السيناريو بكونه توصيفًا لوضع "مستقبلي محتمل" يشتمل على مسارات التطور المحتملة التي قد تؤدي إلى وضع مُتصوّر في المستقبل المنظور.

ويؤكّد الكاتبان أهمية التمييز بين التنبؤ بالمستقبل ورسم سيناريو/ سيناريوهات لوضع مستقبلي ما. فالأول يُدلّل على حدوث شيء/ أشياء ما على بُعد نقطة زمنية محدّدة من الحاضر، أي تقديم نبوءات ذات صبغة يقينية. أمّا الثاني، أي السيناريو، فإنّه يحاول بناء تصورات افتراضية متعدّدة لوضع مستقبلي ما (محدّد زمنيًا، مثل المدى القصير/ المتوسط/ البعيد)، بناءً على عوامل مُختارة في ضوء المعرفة المتوافرة عن الماضي والحاضر. وهذا التعريف والتمييز مهمّان للغاية، لأنهما يؤكّدان الظرفية وعوامل الشكّ والتردد التي تتسم بها السيناريوهات. فالسيناريو هو احتمال وفرضية مبنية على تحليل عناصر محدّدة، لاستشراف الحال الذي قد يؤوّل إليه وضع ما في المستقبل، وليس حقيقة مؤكّدة.

عبر هذه الدراسة، يحاول إذاً المؤلفان تعويض النقص الموجود في أدبيات دراسات المستقبل، خاصّة فيما يتعلّق بتمكين المناهج النظرية لبناء السيناريوهات، ولتحديد مجموعة من الأدوات والمعايير الإرشادية لتطبيق هذه الأطر النظرية عند رسم السيناريوهات في الواقع الفعلي. فقد تطوّرت وتبدّلت نماذج "علم المستقبل" (Futurology)، بدايةً من منظور يرى أنّ المستقبل قابل للتنبؤ إلى فهم للمستقبل بصفته عملية مستمرة تتطوّر بالتدرّج، أو إلى منظورٍ آخر يرى أنّ المستقبل مرن يمكن التأثير فيه من خلال أعمال وتدابير واعية تُتخذ في الحاضر. وقد جاء هذا التحوّل البرادامبي نتيجة لاعتماد مناهج "غير وضعية" (Non-positivist)، تتبنّى التحاليل النوعية (إلى جانب التحاليل الكميّة في بعض الحالات) في دراسة المستقبل. فالمستقبل معقّد وغامض، ومن الأفضل تمثيله ودراسته في إطار طيف من الاحتمالات، كما يُعبّر عنها في "نموذج الفُمع" (Funnel Model) الذي توضّحه هذه الدراسة.

وتتمثّل إحدى أبرز خصائص هذه الدراسة بأنها تعتمد بالدرجة الأولى على مصادر من السّياق الألماني، وهو ما يبدو مبررًا إذا ما أُخذ في الحسبان أنّ هدف الدراسة الأساسي هو استعراض المناهج المستخدمة في علم المستقبل لمصلحة المعهد الألماني للتنمية (German Development Institute). وقد اعتمدت الدراسة، إضافة إلى المصادر التقليدية، على فحص تقارير ودراسات استشرافية عمليّة، قامت بها شركات

كبرى مثل شركة "شل" (Shell International)، تُعنى ببناء السيناريوهات الاستشرافية لمجالات ذات صلة بنطاق أعمالها. ويمكن إجمال محتوى الدراسة في خمسة مواضيع رئيسية، هي التالية:

♦ التعريف بوظائف السيناريوهات، والتي تتمثل بإضافة معرفة في شأن عوامل مؤثرة في تطور الأوضاع المستقبلية، مع الاعتراف بمحدودية هذه المعرفة المُقيدة بظرفيتها وسياقها (ليست الحقيقية). كما أنّ عملية بناء السيناريوهات تُنتج فهمًا مشتركًا، وتحفّز النقاش وتبادل الأفكار التي تُثير عملية اتخاذ القرارات والاستعدادات، من خلال رصد طيف من الاحتمالات.

♦ تنتقل الدراسة إلى تحليل المراحل العملية الخمس لبناء السيناريو، والتي تبدأ بتحديد المجال والعوامل المؤثرة، ثم تحليل هذه العوامل، ومن ثمّ بناء السيناريو وترحيله، أي وصف لتطبيق السيناريو.

♦ تطرقت الدراسة أيضًا إلى مقاربات بناء السيناريوهات المختلفة، وتحديدًا إلى ثنائية المقاربة الاستكشافية / المعيارية (Explorative / Normative)، والمقاربة الكمية / النوعية (Quantitative / Qualitative)، والسيناريو المرجعي / السياسي (Reference / Policy scenario). كما أنّنا نجد في طيّ الدراسة مجموعة من الجداول والأشكال التي توضّح عملية البناء بأسلوب مجرّد وسلس.

♦ تطرقت الدراسة إلى اختلافات السيناريوهات، من حيث المجال والموضوع والتسلسل الزمني ودرجة التبسيط والتعقيد، بحسب الأهداف التي تُعدّ من أجلها السيناريوهات. كما بيّنت أنّه يجب أن تتوافر مجموعة من المعايير، مثل المعقولية والاتساق والشمول وقابلية التحقق من الصحة في أي سيناريو كي يُعتدّ به. كذلك لا بدّ من التأكد من مقروئية الإخراج النهائي للسيناريو.

♦ حاول الكاتبان في الفصلين الثالث والرابع تقديم مجموعة من الإرشادات و"قائمة تحقّق" (Check-list)، لاختيار المنهج الأنسب بحسب الموضوع / الحالة الذي نكون بصدد إعداد سيناريوهات له.

وتجدر الإشارة أخيرًا إلى شيء من عدم التوازن في بنية الدراسة، فالفصل الأول جاء على هيئة مقدمة قصيرة جدًّا، ولعلّ ذلك ما ساهم في فقدان أجزاء مهمة تُهيئ القارئ بطريقة أفضل لقراءة نتائج الدراسة واستيعابها. كما جاء الفصلان الثالث والرابع أيضًا شديديّ الاقتضاب، ما جعلهما لا يقدمان قيمة مضافة حقيقية للدراسة في جانبها المنهجي العملي. فيما جاء الفصل الثاني (التحليلي) جدّ مسهب ومكدّس في آن معًا، ما يزيد قليلًا عسر القراءة وتتبع المضامين المعقّدة غالبًا.

وعلى الرغم من هذه المآخذ، فإنّ هذا الكتاب يظلّ مقدّمة مهمة لمنهج نظم السيناريوهات التي تعدّ في جوهر الدراسات المستقبلية، أضف إلى ذلك أنّه يُقدّم للقارئ جردًا وتحليلًا وتقييمًا شاملًا لمعظم المناهج المتعارف عليها في هذا المجال، ويعرّفه ببعض جوانب الدراسات الاستشرافية الألمانية.